تحليل اللغة والخطاب
فى الفلسفة وعلم الاجتماع
بيار بورديو نموذجا

الاستاذ الدكتور
الزواوى بغوره
قسم الفلسفة – كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة منتوير – قسنطينة

(إن العلوم الاجتماعية تمثل اليوم أداة تحرير هائلة . ولا أملك أن أقول أن رفضها يمثل شكلا من أشكال التقوقع والمحافظة الثقافية التى تتمرس أو تختبئ وراء ذريعة الدفاع عن الهوية والخصوصية».

بيار بورديو

مقدمة :

نحاول فى هذا البحث ان نناقش مشكلة المنهج والنظرية بين الفلسفة والعلوم الاجتماعية وذلك من خلال عرض ومناقشة آراء الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسى بيار بورديو Pierre Bourdieu استاذ علم الاجتماع العام فى «الكوليج دى فرانس» Collège de France فى اللغة والخطاب . ينتمى بورديو للجيل الناقد للوجودية والظواهرية ، جيل «التوسير» و «بارط» و «فوكو» و «دلوز» و «دريدا» ، أى ذلك الجيل الذى اهتم بالمفهوم واللغة وتاريخ العلوم والابستمولوجيا، وكانت خلفيته العلمية تستمد قوتها من ابحاث «باشلار» و «كويرى» و «كفايى» و «كونغليم» ، من هنا فان المقاربة المنهجية المقدمة من قبل بورديو تجد خلفياتها العلمية فى المدرسة الابستمولوجية الفرنسية بالاضافة إلى علماء الاجتماع كـ«ماركس» و «ماكس فيبر» و «دوركايهم» و «ليفى ستروس» وغيرهم ، وهى خلفية ساعدته على طرح جديد ليس فقط لعلاقة الفلسفة بالعلوم الاجتماعية وانما مكنته من تقديم منظور جديد للكثير من

المسائل الفلسفية والاجتماعية ، كما يظهر ذلك فى موضوع اللغة الذى سنحاول تقديم الملامح المنهجية العامة لوجهة نظره فى الموضوع .

يعتبر بيار بورديو فى الوقت الحاضر واحداً من أهم علماء الاجتماع فى فرنسا واحد المفكرين البارزين على الساحة العالمية ، فهو من الجيل المعاصر «لفوكو» و «دريدا» و «ليوتارد» و «دلوز» و «سار» ، أى الجيل الذى اعقب الوجودية وتعاطى مع البنيوية بشكل خاص . قام فى بداية حياته العلمية بدراسات ميدانية فى الجزائر فكان من أهم اعماله فى هذه الفترة "Sociologie de l'Algérie, 1961" و "The algériens, 1962" و "Le déracinement (avec sayed) 1964" و "Travail et travailleurs en Algérie, 1964" و "Algérie 60, 1977" وعندما كان مديرا للدراسات فى المدرسة التطبيقية للدراسات العليا بباريس اصدر كتاب : Les Héritiers بالتعاون مع بسرون "Passeron 1965" والذى كان سببا فى شهرته ، ثم تتالت كتبه المنهجية والنظرية منذ بداية الثمانينات وخاصة كتبه المنهجية الآتية :

Leçon sur la Homo , Le sens pratique, 1980 , Ce que parler veut dire, 1982. , Leçon 1982 Langage et , Choses dites, 1987 , Academicus, 1984 , Pouvoir symbolique, 2001.

(يمكن القول ان بورديو انتقل من الفينومينولوجيا ومشكلات المعنى، إلى الاهتمام بالمفهوم والنقد الابستمولوجى والمشكلات المعرفية أو الابستمية لعلوم الإنسان على غرار باشلار وكونغليم وفوكو . فهو عموما يقاسم الفكرة مع جيل ما بعد الوجودية فى الحاجة إلى التخلى عن الفلسفة الذاتية والانخراط فى البحث الابستمولوجى للعلوم الإنسانية . فلقد مر بقسم الفلسفة مثل بقية مشاهير جيله واحس بالخواء والعدم فى هذه الاقسام ، يقول واصفا تلك المرحلة : (كنت ككل أولئك الذين تعبوا من الوجودية، ان اذهب إلى ابعد من مجرد قراءة المؤلفين الكلاسيكين وان احاول اعطاء معنى ما للفلسفة . وكان جورج كونغليم وغاستون باشلار بالنسبة لى بمثابة «الانبياء القدوة» بالمعنى الذى يعطيه ماكس فيبر لهذه العبارة . ولما كانت

الحركة الفينومينولوجية - الوجودية مسيطرة على الساحة فلم يكن أحد تقريبا يعرف بوجود هذين المفكرين على الرغم من ان دروسهما كانت تفتح خطا جديدا) [1].

لقد ساهمت اعمال ليفى ستروس فى اعادة الاعتبار والاحترام للعلوم الانسانية، وخاصة بعد صدور «الانتزبولوجية البنيوية» و «الفكر المتوحش» ودعوته إلى استلهام النموذج الالسنى كما صاغه «دى سوسير» و «جاكسون» و «حلقة براغ» عموما ، ثم لحقتها جهود «فوكو» فى الاركيولوجيا و «دريدا» فى الغراماتولوجيا و «بارط» فى السيميولوجيا . على ان بورديو رغم الأهمية التى اعطاها لفلاسفة وعلماء جيله إلا أنه ترك مسافة ما بينه وبينهم ، مسافة تنم عن عدم الرضا والتحفظ ، فهو يرى ان هذا الجيل الذى تلى الوجودية : (صحيح انهم احدثوا قطيعة مع الفينومينولوجية السارترية والنزعة الإنسانوية الهشة أو المجردة والمثالية، ولكنهم انضموا نصف انضمام إلى المنهجية الابستمولوجية واعتنقوها نصف اعتناق)[2] . وان عيب الفلاسفة يتمثل فى الابتعاد عن الميدان والحياة العملية ، بل ان بورديو يتهمهم بسرقة اعمال الباحثين الميدانيين لكى يصبغوا عليها تعميماتهم النظرية) .

ولعل النص الموالى يبين حجم وعمق المشكلات التى طرحها هذا الفيلسوف العالم، يقول : (سوف تتخيلون انكم فى درس فلسفة لا فى درس علم اجتماع. ولكن ارجو ان تعرفوا ان ما افعله ليس عملا نظريا بحتا، وانما هو عمل نظرى يجئ بعد انتهاء المعركة، أى بعد القيام بالبحوث الميدانية والتطبيقية .... كان السؤال الاساسى الذى طرحناه هذا العام يخص العلاقة بين السلطة والمعرفة .... وقد رأيت انه يجب تجاوز التضاد التقليدى المعروف بينهما .... اريد ان اتجاوز ذلك لأبين ان هنالك سلطة للنظرية، او سلطة نظرية ... لقد قمت بهذا التمرين النظرى كعالم اجتماع وباحث ميدانى، وحاولت تحديد قوانين السلطة النظرية وآليات اشتغالها : .... وهذا ما ينساه الفلاسفة عموما، لانهم يفكرون دائما بمصطلحات الجواهر الخالصة) [3] . يطرح هذا النص الاسئلة الكبرى فى علاقة ممكنة بين الفلسفة والعلوم الاجتماعية، انه يطرح علاقة النظرية بالممارسة وكيفية تحققها ، كما يطرح مسألة العلاقة بين العلم والسياسة ومكانة العلم بوصفه سلطة ، ومساهمة العلوم الاجتماعية فى تحليل هذه القضايا مقارنة بالفلسفة ، وعلاقة المعرفة والسلطة كما طرحتها كتابات ميشيل كوفو.

وللخروج من الطريقة الفلسفية كما وصفها آنفا، اعلن بورديو انتماؤه إلى المنهجية المادية، ، ولكن ليس أية مادية وانما المادية الناشطة وليس المادية السلبية، وبذلك يعيد اطروحة ماركس التى يعيب فيها على الماديين الذين تركوا الجانب النشط فى المعرفة للمثاليين ، وهذا ما حاول القيام به بورديو وذلك من خلال نظريته القائمة على : (مادية الأشكال الرمزية) . وانه من أجل ان تعرف الذات موضوعها بشكل صحيح يجب ان تجاوز مرحلة النظر إلى مرحلة العمل، وان تدخل فى الممارسة الميدانية، من هنا ممارسته للبحث الميدانى فى أكثر من عشرين وسطا اجتماعيا مختلفا، باحثا فى اسباب الظواهر وعللها وضرورتها الموضوعية والذاتية، يقول : (ان العلم الذى يريد ان يفهم ويكتشف علة ما هو موجود من ظواهر يفترض حتما بانه لا شئ موجود بدون علة وجود . لكن عالم الاجتماع يضيف إلى هذه العبارة «اجتماعى» فتصبح بدون علة وجود اجتماعية. ولكن الناس يخلطون تحت اسم الحتمية بين شيئين مختلفين جدا : الأول : هو الضرورة الموضوعية الكامنة فى الأشياء . والثانى : الضرورة «المعاشة» الظاهرية والذاتية، أى عاطفة الشعور بالحتمية أو بالحرية، ان درجة الحتمية التى تتحكم فى العالم الاجتماعى تعتمد على معرفتنا له ، هذا من جهة، واما من جهة أخرى فنحن نجد ان الدرجة التى يخضع بها العالم الاجتماعى للحتمية ليست مسألة رأى شخصى) [4].

ولقد خص البنيوية بالنقد المنهجى ، وبين محدودية الطريقة البنيوية ، رغم اقراره بأهميتها وخاصة فى مسألة اللغة وطريقة معالجتها للاساطير والرموز، قائلا: (ولكن على الرغم من ذلك جاء وقت احسسنا فيه بالحاجة لإحداث القطيعة مع الانثروبولوجيا البنيوية وليفى ستراوس بالذات . ذلك ان ليفى ستراوس قد حصر عمله فقط بتحليل الأنظمة الرمزية وخصوصا الأساطير، أى بالتصورات الفوقية. اما نحن فقد لزم علينا ان نذهب إلى أبعد من ذلك لكى نحلل العلاقات الاجتماعية بصفتها متماسكة وذات دلالة. بمعنى آخر فلقد نقلت البنيوية من مستوى التصورات والاساطير والمخيال إلى مستوى الممارسات الواقعية والعلاقات الاجتماعية . يوجد فضاء اجتماعى للعلاقات التى تشكل تصوراتها أو التصورات المشكلة عنها ، التعبير الرمزى) [5].

وفى الوقت الذى انتقد فيه بورديو البنيوية كما صاغها ليفى ستروس، فإننا نجد تقارباً بينه وبين فوكو وخاصة فى مسألتين اساسيتين هما تحليل المعرفة والسلطة وتحليل اللغة او الخطاب) . ولأننا سنعالج المسألة الثانية بقليل من التفصيل لاحقا، فاننا نريد ان نشير باختصار إلى مسألة المعرفة – السلطة ، كما بينها هو ، قائلا: (ان موقفى، فى خطوطه العريضة ، قريب إلى حد كبير من موقف فوكو، ومع ذلك فهو مختلف جدا لقد حاولت ان احلل منطق وآلية ما كنت قد اسميته بالسلطة الرمزيةle pouvoir symbolique ، أى السلطة التى تمارس نفسها على هيئة القدرة التى تجعلنا نرى او نفهم او نعرف أو نؤمن. وانطلاقا من ذلك يمكننا ان نتحدث عن السلطة النظرية او سلطة النظرية اذا ما اعطينا لكلمة النظرية معناها الايتمولوجى الاصلى : أى برنامج الرؤية . كيف تمارس هذه السلطة دورها؟ كيف تمارس عملها؟ هنا ندخل فى منطقة المعرفة / الجهل ، او المعرفة / واللامعرفة . ذلك ان السلطة الزمزية هى سلطة تعسفية فى الأصل، ولكن الناس يعترفون بشرعيتها لأنهم يجهلون انها تعسفية . وهذا هو الحال فيما يخص نظام الشهادات مثلا فى مجتمعنا الحالى . (...) فى الواقع ان السلطة ليست شيئا متموضعة فى مكان ما، وانما هى عبارة عن نظام من العلاقات المتشابكة ، ونجد ان كل بنية العالم الاجتماعى (=المجتمع) ينبغى ان تؤخذ بعين الاعتبار من أجل فهم آليات الهيمنة والسيطرة) [6]. ولقد بلورة بورديو مفهوما اساسيا فى تحليل السلطة الرمزية بالخصوص وهو الرأسمال الرمزى Le capital symbolique .

أولا : تحليل اللغة والخطاب بين بورديو وفوكو :

(قلنا فى الفقرة السابقة ان بورديو قد انتقد التمشى البنيوى على مستوى الانثربولوجية، هذا النقد فى الحقيقة ينسحب بشكل اساسى على طريقة التحليل البنيوى للغة والخطاب والنص ، وهو نقد طال بشكل اساسى لسانيات «دى سوسير» و«شومسكى» ومدرسة اكسفورد فى تحليل افعال الكلام أو الخطاب ومدرسة فرانكفورت وممثلها هابرماس فى نظريته حول الفعل التواصلى ، وهو نقد نقرؤه فى كتابين اساسين من كتبه وهما : Ce que parler veut dire و Langage et pouvior symbolique وهو نقد يقربه من فوكو وفى نفس الوقت يبين تميزه عنه وعن التيار الذى يسمى بما بعد البنيوية وبما بعد الحداثة، يقول : (ليس التحليل

البنيوى الا تنويعا محدثا على التحليل الداخلى القديم الذى يعالج النص كشئ مستقل لا علاقة له بالخارج . (...) اعتقد فيما يخصنى انه ينبغى الربط بين الفضاء الذى تتموضع فيه النصوص وبين الفضاء الذى يتموضع فيه المنتجون (أى الكتاب) .

من هنا دعا إلى احداث قطيعة مع القراءة الداخلية كما طبقها ليفى ستروس، والقراءة التى تربط بين الأثر وكاتبه بشكل مباشر، واعتبار النص مجرد انعكاس لحياة الكاتب الشخصية (منهجية لانسون) . وكذلك مع ما يسميه بالطريقة الاختزالية التى تجعل من الأثر انعكاساً مباشراً للمجتمع أو طبقة معينة (منهجية غولدمان على سبيل المثال) ليدعو إلى اعتماد ما سماه بضرورة الكشف عن : (بنية العلاقات بين نصوص فترة زمنية محددة (وليس نصا معزولا بمفرده) وبين بنية المواقع التى يحتلها مؤلفوها داخل الحقل الأدبى) [8] . وهذا ما سماه فوكو فى اركيولوجيا المعرفة، بدراسة التشكيلة الخطابية لحقبة تاريخية معينة ، ودراسة بنية النص والمواقع تؤدى إلى الحديث عن مختلف الوسائط التى تتحكم فى عملية الانتاج الثقافى . بمعنى الاعتراف بالفضاء الخصوصى الذى ينتج فيه الكتاب اعمالهم ، دون عزلهم عن الفضاء الكبير الذى هو المجتمع . أى ان بورديو يعترف بخصوصية الفضاء الثقافى وصراعاته ورهاناته وانه ليس فقط انعكاس آلى أو مباشر للمجتمع . فمصالح الفضاء الثقافى قد لا تكون هى نفس مصالح الفضاء الاجتماعى أو على الاقل قد تكون مصالح مختلفة . من هنا ضرورة تحليل الأثر الثقافى : (لذاته وبذاته قبل ان نربطه بشكل عام وغامض بالتشكيلات الاجتماعية الكبرى) [9] . او كما يقول فى مكان آخر: (الشئ الذى يفرق منهجيتى عن منهجية هؤلاء هو اننى أدرس عناصر اللعبة التى تتولد فيها المصالح الخاصة للمثقفين والاهتمام الجزئى بمصالح الاخرين معا. ان مصالح المثقفين داخل الحقل الثقافى الخاص بهم لا يمكن ان تختزل إلى مجرد مصالح طبقية) [10] . لكن بورديو يعترف بان هذه المنهجية تواجه عقبات معرفية متصلة بتفسير الموهبة والابداع والعبقرية ، مؤكدا على ان هذه المفاهيم قبلية، تحول دون فهمنا من ان : «المبدع مهيأ سلفا عن طريق اوضاعه الاجتماعية الخاصة والملائمة لكى يحتل موقعا محددا داخل حقل ما . وغالبا ما يكون هذا الموقع غامضا فى البداية) [11] .

ونجده فى كتابه الخاص باللغة «ماذا يريد الكلام ان يقول» ومنذ الصفحة الأولى،

يناقش مختلف اشكال السيطرة التى يمارسها النموذج اللسانى على العلوم الاجتماعية، وهو فى هذه السياق قريب من حساسية فوكو من اللسانيات، مبينا ان الحل الوحيد يتمثل فى اظهار انه حتى العمليات اللغوية ذات اساس اجتماعى . وفى نظره فان القبول بنموذج دى سوسير فى التحليل يعنى معالجة العالم الاجتماعى بوصفه فضاء للتبادل الرمزى وبالتالى اختزال للفعل الاجتماعى إلى فعل الحوار او التواصل ، الذى يجب ان ينحل بدوره إلى اللغة والثقافة .

وللقطع مع هذه الفلسفة الاجتماعية، كما يقول – ما دام قد سبق له وان قدم نقدا ابستمولوجيا للبنيوية فى كتابه الحس العملى – فانه يجب التأكيد على ان التبادل والتواصل يرتكز على علاقات قوى، داعيا فى نفس الوقت إلى تجاوز النظرة الاقتصادية الفجة لاشكال التبادل الرمزى . مقدما مفهومه الاساسى فى التحليل اللغوى وهو «بنية السوق اللغوية Structure du marché linguistique فالنحو لا يحدد المعنى بقدر ما يحدده السوق، السوق اللغوى، وان الرسالة اللغوية لا تفهم الا بوصفها نتاج لسانى ، وان التأويلات تكون على قدر العلاقة التى يقيمها المنتجون، من هنا يعتقد ان (السوق – السوق اللسانى – يساهم فى القيمة الرمزية وفى معنى الخطاب معا) [12] . ولكن ماذا يقصد بالسوق اللغوية؟ (توجد السوق اللغوية عندما ينتج شخص ما خطابا موجها لمتلقين قادرين على تقييمه وتقديره ومنحه سعرا معينا. والسوق اللغوية شئ ملموس جدا ومجرد جدا فى آن واحد . فمن الناحية الواقعية، تعتبر السوق وضعية اجتماعية رسمية مطقسنة إلى هذا الحد أو ذاك ، انها بمثابة مجموعة من المتحاورين الذين يشغلون مناصب عليا إلى هذا الحد أو ذاك فى سلم التراتب الاجتماعى) [13].

ويتصل مفهوم السوق اللغوية بمفهوم «الرأسمال اللغوى Le Capital linguistique الذى يعوض الكفاءة اللغوية ، وهو ما يعنى وجود ارباح لغوية ... وعليه فيمكن (للغة ان تقوم بالوظيفة التى يعتبرها اللغويون محايثة لها، أى الوظيفة التواصلية ، دون ان تتوقف عن القيام بوظيفتها الحقيقية، أى الوظيفة الاجتماعية، فوضعيات علاقات القوة اللغوية هى الوضعيات التى يمكن فيها الكلام، دون تحقيق التواصل . كحالة القداس مثلا) [14]. فمثلا : (يكون للصراعات الدائرة بين الناطقين

بالفرنسية والناطقين بالعربية فى عدد من الدول العربية التى كانت تخضع للاستعمار الفرنسى سابقا ، يكون لتلك الصراعات دوما بعد اقتصادى بالمعنى الذى اعزوه لهذه الكلمة ، أى ان المالكين لكفاءة معينة يدافعون عن قيمتهم الخاصة كمنتجين لغويين من خلال الدفاع عن سوق معينة تلائم منتوجاتهم اللغوية الخاصة . ان التحليل يتأرجح بين الاقتصادية والصوفية امام الصراعات القومية . اما النظرية التى اقترحها، فانها تمكن من ان نفهم انه يمكن الا تكون للصراعات اللغوية قواعد اقتصادية واضحة، ويمكن ان تقحم مع ذلك فوائد حيوية للغاية تكون احيانا اكثر حيوية من الفوائد الاقتصادية بالمعنى الضيق) (15).

ولكن ، اذا كانت اللغة تخضع للسوق اللغوية ويحكمها الرأسمال اللغوى بوصفه راسمالا رمزيا ، فان مشكلة الاسلوب Le style ، بما هى دليل على حضور الفرد وتميزه، تبقى مطروحة ، مؤكدا على ان ما يتحرك فى السوق اللغوية ليس اللغة ولكن خطابات متميزة اسلوبيا ، سواء فى طريقة انتاجها ومكانة منتجها او مستقبلها. فليس هنالك من كلمة محايدة ، وكل كلمة يمكن ان تأخذ معانى متعارضة أو متضادة أو متناقضة وذلك بحسب ما يقدمها المرسل ويستقبلها المستقبل . واحسن مثال على ذلك هو اللغة السياسية والدينية . ان هذه الاختلافات اللغوية لا ترجع فى نظره إلى افراد ولكن إلى بنية الفضاء الاجتماعى الذى يكون لا شعوريا وبنية الفضاء الثقافى لقائلى تلك اللغة . ولكن هذا لا يمنع من ان على علم الاجتماع ان يحترم استقلالية اللغة ومنطقها الخاص وقواعدها الذاتية فى العمل (16). فنحن لا نستطيع فهم الأثر الرمزى للغة ما لم نأخذ بعين الاعتبار الفكرة القائلة ان اللغة هى الآلية الصورية الأولى التى تملك قدرات عامة ولا متناهية . اذ من الممكن ان نتلفظ بكل شئ فى اللغة ، ولكن فى حدود نحوها .

ثانيا : بين سلطة الخطاب وخطاب السلطة :

اذا كان بورديو قد طور قاموسا خاصا به فى التحليل اللغوى، مثل مفهوم الحقل، والحقل اللسانى ، والرأسمال الرمزى، والسلطة الرمزية ، والسوق اللغوية، والرأسمال اللغوى، فاننا نريد ان نتوقف بشكل خاص عند مفهوم سلطة الخطاب وخطاب السلطة. ينتقد بورديو اطروحة «اوستين» التى تعطى سلطة لبعض للكلمات كما طرحها فى

كتابه how to do things with words أو quand dire c'est faire ، كما رفض ذلك التمييز «الساذج» – كما يقول – الذى اقامه دى سوسير بين اللسانيات الداخلية والخارجية، بين اللغة واستعمالاتها ، نافيا فكرة سلطة الكلمات ، معترفا بان القوة الخطابية للعبارات لا تكمن فى نفس الكلمات . وان كان هنالك حالات استثنائية يمكن ان تختزل فيها التبادلات الرمزية إلى علاقات تواصلية محضة. ان سلطة الكلمات ليس اكثر من السلطة المفوضة لناطقها ، وان كلماته ، او مادة خطابه، ليست اكثر من شهادة من بين شهادات أخرى، لضمان التفويض الذى يتم استثماره .

يقول : (فليست سلطة الكلام الا السلطة الموكولة لمن فوض إليه أمر التكلم والنطق بلسان جهة معينة . والذى لا تكون كلماته (أى محتوى خطابه وطريقة تكلمه فى ذات الوقت) على أكثر تقدير ، الا شهادة ، من بين شهادات اخرى، على ضمان التفويض الذى وكل للمتكلم (وان) اقصى ما تفعله اللغة هو انها تمثل هذه السلطة وتظهرها وترمز اليها) [17] . فليس هنالك سلطة الخطاب هنالك فقط خطاب السلطة، وان هذا الخطأ – فى نظره – وقع فيه اوستين ولحقه فى ذلك هابرماس، وذلك عندما اعتقدا انه من الممكن ان يستخرجا من الخطاب ما يشكل فعالية الخطاب [18] . ان هذا التحديد يتفق ويختلف مع فوكو فى نفس الوقت ، ففى الوقت الذى يعتبر فوكو ان للخطاب سلطته الخاصة وذلك من منطلق فلسفى وجودى، ينحو فيه منحى نيتشه وهيدغر، فانه لا يفصل الخطاب عن السلطة والمجتمع معا وهو ما بينه فى مختلف الاجراءات الخارجية أى : (عمليات المنع والقسمة والرفض وارادة المعرفة) والداخلية أى : (التعليق والمؤلف والفرع المعرفى) والتوظيف أى : (جماعات الخطاب والمذاهب الدينية السياسية والفلسفية والتملك الاجتماعى للخطاب) والتى تحدث عنها فى نظام الخطاب [19]، كما انه فى الوقت الذى يقر فيه فوكو بأهمية تحديد اوستين للملفوظ او للمنطوق ، فانه يختلف معه فى طريقة التحليل، تلك الطريقة التى تجد مجالها فى التاريخ وفى ربطها للملفوظ بالسلطة مع مفهوم جديد وخاص لها . من هنا فان فوكو وان كان تحليله للخطاب يتفق ومضمون المنطوق كما صاغه اوستين الا ان منهج التحليل يختلف لأنه يجرى فى البعد التاريخى وفى اطار العلاقة بين المعرفة والخطاب والسلطة والخطاب ، وبذلك يتفق مع تحليل بورديو الذى يلح على الطابع

الاجتماعى للخطاب وعلى ارتباطه بالمؤسسة الرمزية. هذه السلطة الرمزية التى لا يمكن ان تتحقق فى غياب الاعتراف الذى يدلى به الخاضع لتلك السلطة .

من هنا فان تحليل الخطاب عند بورديو لا يمكن ان يكون تحليلا لذاته، أى لذات الخطاب ، وان الوحدات الصورية للخطاب لا تقدم معناها الا اذا تم ربطها بالشروط الاجتماعية لانتاجها ، بمعنى للمكانة والوضع الذى يحتله مؤلفوها فى حقل الإنتاج، ومن جهة أخرى إلى السوق الذى انتج من اجله ، وكذلك مجموع الاستحقاقات Les échéants المطلوبة . يقول (ان علم الخطاب بوصفه تداولية اجتماعية يوجد اليوم فى مكان شاغر أو غير مشغول، رغم أن هناك من سبق إلى ذلك لقد بدا مع بسكال فى Provinciales ونيتشه فى antéchrist وماركس فى Idéologie allemande ، واهتم أو عمل فعليا على الاكتشاف فى الوحدات الأكثر صورية للخطاب ، أثار الشروط الاجتماعية لإنتاجها وتوزيعها، . وعلى التحليل أن يبين أو يعين الوحدات الاجتماعية للأسلوب والوحدات الاجتماعية للمؤلف) .

وعليه يخلص إلى نتيجة مركزية يقول فيها : (نتبين الآن ان جميع المجهودات التى بذلت لترى فى المنطق اللغوى الذى يتحكم فى مختلف الأشكال الاستدلالية والبلاغية والاسلوبية ، سبب الفعالية الرمزية لتلك الاشكال : لابد وان تبوء بالفشل ما دامت لا تقيم علاقة بين خصائص الخطاب وصفات من يلقيه وسمات المؤسسة التى تسند إليه أمر الالقاء، [21] . فعلى سبيل المثال ان خطابا سلطويا كدرس الاستاذ وخطبة الواعظ الدينى ، انه خطاب لا يفعل فعله الا شريطة ان يعترف به كخطاب نفوذ وسلطة . وهذا الاعتراف الذى يصاحب بالفهم او بدونه لا يتم بيسر وسهولة الا ضمن شروط خاصة ، وهى الشروط التى تحدد الاستعمال المشروع (فالخطاب ينبغى ان يصدر عن الشخص الذى سمح له بان يلقيه ، أى عن هذا الذى عرف، واعترف له ، بأنه اهل لان ينتج فئة معينة من الخطابات وانه كفء وجدير بذلك ... كما انه ينبغى ان يلقى فى مقام مشروع ، أى امام متلقى شرعى ... واخيرا ينبغى للخطاب ان يتخذ الصورة الشرعية القانونية أى ان يخضع لقواعد النحو والصرف ....) [22] .

من هذا يستنتج بورديو : انه (لا تحكم لغة السلطة وتأمر الا بمساعدة من تحكمهم، أى بفضل مساهمة الاليات الاجتماعية القادرة على تحقيق ذلك التواطؤ الذى يقوم على

الجهالة ، والذى هو مصدر كل سلطة) [23].

وعلى هذا الاساس من التحليل للغة والخطاب ، يدعو بورديو إلى ما يسميه «تداولية اجتماعية une pragmatique sociologique ») ومضمونها انه ما دامت اللغة لا تتضمن فى ذاتها سلطة، وان كانت تتضمن فى ذاتها وفى منطقها الداخلى ما يؤدى إلى تجاوزات السلطة الذى هو البرهان الخاطئ او القياس الخاطئ Le paralogisme ، أى القدرة على التضليل وهو ما ينسب للسفسطائيين كما ذهب إلى ذلك افلاطون ، السوفسطائيون الذين استفادو من امكانية وقدرة اللغة قادرة على ان لا تقول شيئا وان تقول اللامعنى او ان توجد فى الكلمات وبواسطة الكلمات ما لا يوجد فى الواقع . نعم للغة هذه الامكانية ولكن خارجا عن هذه الامكانية فان للغة وجود اجتماعى ، وسلطتها مستمدة من ذلك الوجود ، وحتى اللغة السوفسطائية مستمدة من قوة السوفسطائيين ، كما بين ذلك مرة أخرى افلاطون .

وعليه فانه حتى نظام التسمية وعبارة : اننا نسميك دكتورا ، على سبيل المثال ، تعنى التسمية وفى نفس الوقت تعنى شكلا من الوجود الاجتماعى . مما يعنى ان القياس الخاطئ لا يمكن محاربته فقط بقياس منطقى مثل ما فعل «برتراند راسل» على سبيل المثال وانما باظهار خطئه اجتماعيا . صحيح انه فى العالم الاجتماعى الكلمات بامكانها ان تصنع الاشياء ولكن هذا لا يتم الا وفق شروط معينة . وهو ما يعنى ان العلم الاجتماعى له اسبابه ومبرراته التى لا يعرفها المنطق نفسه .

ثالثا : مكانة التحليل اللغوى فى نظرية الممارسة :

يظهر بورديو ناقدا لمختلف النظريات اللغوية وخاصة نظريات دى سوسير وشومسكى انطلاقا من مبدئهما فى الصلة بين اللغة والكلام ، واوستين فى اسناده لبعض الملفوظات اثار السلطة ، واكثر من هذا يقترح مقاربة جديدة للغة والتبادل اللغوى، وبالطبع فان هذه المقاربة هى استمرار لوجهة نظره التى طرحها فى اعمال سابقة وفى سياقات اخرى . وهو ما يعنى ان فهم مقاربته فى اللغة يجب ان تأخذ فى الحسبان الاطار النظرى الذى أسسه أى المفاهيم والقضايا الكبرى التى ناقشها تحت اسم «النظرية التطبيقية او نظرية الممارسة Théorie de la pratique».

لقد كانت نظرية الممارسة جهدا منظما لتجاوز مجموعة من التقابلات

والتضادات والتعارضات التى تعيشها أو التى تواجهها العلوم الاجتماعية منذ نشأتها. مثل الفرد فى مقابل المجتمع ، الفعل فى مقابل البنية، والحرية فى مقابل الضرورة، والذاتية فى مقابل الموضوعية . ويرى بورديو ان الذاتية هى الوضعية الفكرية تجاه العالم الاجتماعى التى تهدف إلى فهم الكيفية التى يظهر فيها العالم لناظريه او لملاحظيه ، وفى هذا التعريف تلميح إلى السوسيولوجيا كما نظرت لها الظواهرية أو التأويلية وكما نقرؤها فى كتابات «الفرد شوتزAlfred Schutz ، أى ما يتصل بالتجربة الذاتية . اما الموضوعية فهى توجه فكرى يهدف إلى انشاء العلاقات الموضوعية التى تقوم عليها الممارسات او التطبيقات واالتصورات او التمثلات. وفى نظره فان الموضوعية تفترض نوعا من القطيعة مع التجربة المباشرة ، أى انها تضع بين قوسين التجربة الأولى لتحاول ايجاد البنيات والمبادئ الأولية لكل تجربة اولية. وتعد التحليلات المقدمة من قبل ليفى ستروس مثالا لهذا التمشى. ولعل المساهمة الكبرى للموضوعية هى فى محاولتها القطع مع التجربة المباشرة . ويعتقد بورديو ان القطع مع التجربة المباشرة هى الخطوة الأولى منهجيا، لعملية البحث السوسيولوجى، ذلك ان الباحث الاجتماعى يشارك مباشرة فى الحياة الاجتماعية . مما يعنى انه يجب القطع كما قال باشلار مع المعرفة العامة .

ولكن هذه الخطوة تواجه مشكلة ، وهى انها لا تحدد بشكل دقيق الرابطة او العلاقة بين المعرفة المنتجة والمعرفة المطبقة او الممارسة التى يمتلكها الفاعلون العاديون. أى هنالك ضعف فى ادراك وفهم العلاقة بين العلاقات الموضوعية من جهة والنشاطات التطبيقية للافراد المشكلين للعالم الاجتماعى . وعليه فان نظريته فى الممارسة النظرية هى محاولة لتجاوز صعوبات الموضوعية من دون السقوط فى الذاتية. بمعنى اعطاء الأهمية للقطيعة مع المعرفة العامة من دون الاضرار بالطابع العملى للحياة الاجتماعية) .

ولقد كان المفهوم الاساسى والكبير الذى استعمله بورديو فى هذا السياق هو مفهوم «المظهر أو الزى الخارجى habitus" ، وهو مفهوم قديم نقرؤه عند ارسطو وفى العصر الوسيط ، ولكن بورديو يستعمله بمعنى جد خاص . يستعمله بما يفيد مجموعة من الاجراءات التى يحملها الفاعلون من أجل الفعل ورد الفعل بشكل من

الاشكال . وتتضمن الاجراءات ممارسات وتصورات وسلوكات منظمة ولكن ليس بطريقة واعية بالضرورة ، مثل اداب المائدة وآداب الجلوس وآداب الأكل وآداب الحديث وآداب التعامل .... الخ ، أى تلك الاجراءات والعمليات التى تصبح طبيعة ثانية للفرد . هذه الاجراءات تتميز بكونها مبنية ودائمة وعامة ومتنقلة او متحولة. وكل مظهر يؤدى معنى عمليا . وهكذا فالمعنى العملى أو الحس العملى ليس فقط حالة ذهنية بقدر ما هو حالة جسدية . على ان مفهوم المظهر فى نظر بورديو لا يجب فصله عن مجموع المظاهر الأخرى هذا من جهة، وعن السياق الاجتماعى الخاص او الحقل الذى يعمل فيه او يتحرك فيه الافراد من جهة أخرى . وبالطبع فاننا هنا نلتقى مع مجموعة اخرى من المفاهيم المنهجية مثل الحقل والسوق واللعبة، فالحقل والسوق هما فضاءات مبنية من المواقف التى تحددها توزيع مختلف الثروات أو رؤوس المال) .

ولعل من أهم افكاره فى هذا المجال هو قوله بوجود انواع مختلفة من الرأسمال. وانه لا يوجد فقط رأسمال اقتصادى فقط . فهنالك رأسمال ثقافى متكون من المعارف والقدرات التقنية والتربوية ورأسمال رمزى متعلق بالمجد والشرف، ورأسمال لغوى. وان المجال او الحقل هو دائما ميدان للصراع والأزمات والنزاعات. والافراد الذين يصارعون داخل حقل معين لهم رؤى مختلفة وحظوط مختلفة ولكنهم يتقاسمون مجموعة من القضايا الأولية . فمثلا كل المشاركين فى حقل ما ، يجب ان يؤمنوا او ان يعتقدوا باللعبة التى يلعبونها ، وبالقيمة التى يلعبون من أجلها . وهكذا فان هنالك دائما اتفاق مسبق أو على الأقل تواطؤ اساسى من قبل المتنازعين .

(انه لمن الواضح ان المفاهيم المستعملة من قبل بورديو ، ذات منشأ اقتصادى الا انها مكيفة لتحليل الحقول التى هى ليست اقتصادية بالمعنى الحصرى للكلمة. ولكن من دون شك ، فانها النقطة التى تؤدى الى سوء الفهم وخاصة النظر الى نظرية بورديو بوصفها نوعا من الاختزال الاقتصادى . على أنه اذا كان استعماله للمفاهيم الاقتصادية يمكن ان يطرح بعض المشاكل فان فكره من التعقيد ما يبعد عنه شبه الاختزال . ذلك انه لا يقوم برد لجميع الحقول الاجتماعية إلى الاقتصاد ولا كل الممارسات الاجتماعية إلى الاقتصاد كما تفعل الماركسية ، ولكنه بالعكس يحدد

الاقتصاد بالمعنى الحصرى للكلمة بوصفه حقلا من بين حقول متعددة التى لا ترد الواحدة إلى الأخرى. وعليه فان الحقول التى لا تكون اقتصادية لا يمكن ان تعمل وفقا لمنطق اقتصادى أى محكومة فقط بالناحية المالية . ولكن من الممكن ان تخضع الى المنطق الاقتصادى بالمعنى الواسع وذلك اذا توجهت نحو الزيادة فى رأسمال معين كالرأسمال الثقافى او الرمزى او اللغوى . وهو ما يعنى ان بورديو يقيم علاقة بين ممارسات الفاعلين ومصالحهم ، دون الاقرار بالضرورة ان هذه المصالح اقتصادية بحتة . فاذا ما أردنا ان نعرف المصالح التى يلعب بها او هى موضوع رهان فى الانتاج الأدبى او الفنى فيجب تشكيل الحقل الفنى فى علاقته بالحقل الاقتصادى والسياسى ... الخ .

ولا تخرج نظريته فى اللغة والخطاب والتبادل اللغوى عن نظريته فى الممارسة. فالمنطوقات والعبارات اللغوية هى اشكال من الممارسة، وهى وجهة نظر قريبة من فوكو الذى يتحدث دائما عن الممارسات الخطابية والممارسات غير الخطابية، وبوصفها كذلك يجب فهمها على انها نتاج العلاقة بين المظهر اللغوى والسوق اللغوية. فالمظهر اللغوى هو مجموعة من الاجراءات المكونة للمظهر اللغوى مثل عمليات تعلم اللغة فى سياقات معينة كالأسرة والمدرسة . وان المظهر اللغوى مغروس فى الجسد ذاته كالصوت مثلا أو ما يسميه بالأسلوب فى التلفظ . طبعا ان مثل هذه الآثار قد تم دراستها من قبل علم اجتماع اللغة والانثربولوجيا اللغوية والمهتمين باللغات الشعبية ، أى ما يدخل فى باب الجغرافيا اللغوية . وان اشكال النطق لا تلحق الجسد ، ولكن تلحق كذلك الطبقات والفئات الاجتماعية . فالنطق عند الفئات الشعبية يختلف عنه عند الفئات الارستوقراطية او الثرية وكذلك الحال بالنسبة لسكان الريف والمدينة .

ان الملفوظات والعبارات اللسانية يتم انتاجها دائما فى سياقات واسواق خاصة. وان هذه الأسواق تعطى لهذه المنتوجات اللغوية قيمة . والقيمة تخضع بالطبع لمبدأ الكفاءة العملية، وهو مبدأ غير متساوى يخضع لعملية الرأسمال اللغوى. وان كان الرأسمال اللغوى يؤدى إلى الرأسمال الاقتصادى والثقافى . وانه كلما كان رأسمال المتحدث مهما ، كلما كا ن هذا الأخير له المقدرة فى استغلاله

لصالحه، أى ان هنالك نظام التفارق او الاختلافات ، وضمان بالتالى للمصلحة او الربح فى التميز Profit de distinction . كما يربط اللغة كذلك بمسألة الرقابة واللغة الشرعية، ففى حديثه عن السلطة الرمزية يتحدث دائما عن «الاعتراف والتجاهل "reconnaissance et méconnaissance" وكذلك مفهوم السلطة الرمزية والعنف الرمزى الذى طبقه عندما حاول دراسة الهبة فى المجتمع القبائلى، فبدلا من ان يدرس الهبة فى بنيتها الصورية ، نظرا إلى التبادل الذى تحدثه الهبة بوصفه سلطة مقنعة . (وهكذا - كما يقول - فان ما يمكن ان نطلق عليه شروطا طقوسية، واعنى مجموع القواعد التى تتحكم فى شكل المظهر العمومى للسلطة ومراسيم الاحتفالات والقواعد التى تضبط الأعمال والتنظيم الرسمى للطقوس ، لا تشمل الا شرطا واحدا أكثر تجليا من بين مجموعة من الشروط التى أهمها هى تلك التى تهيئ للاعتراف ان يكون، فى ذات الوقت تجاهلا وإيمانا ، أى التى تهيئ لتسليم سلطة تعطى الخطاب المشروع قوته وتؤمن بنفوذه) (24) .

رابعا : مثال تطبيقى : العولمة من منظور التداولية الاجتماعية ؟

نشر بورديو فى مجلة "Maniere de voire" ، لشهرى سبتمبر واكتوبر بالاشتراك مع لواك فكون مقالا مثيرا بعنوان : La nouvelle vulgate planétaire بين جملة من المسائل منها : ان هنالك كلمات لا تفارق شفاه المستشارين والخبراء وصناع القرار والمسؤولين ، ظهور ما يشبه قاموس العولمة المكون من : المرونة flexibilité ، طريقة الحكم gouvernance ، التشغيل، الاقصاء، الاقتصاد الجديد، الجمعوية communautarisme ، تعدد الثقافات multiculturalisme ما بعد الحداثة ، العرقية ethnicité ، الاقلية ، الهوية ، التجزئ والتقطيع fragmentation ، ولقد انتشر هذا القاموس على حساب قاموس آخر هو الرأسمالية، الطبقة، الاستغلال ، الهيمنة، اللامساواة ، بما يفيد تغييبا يتم بدعوى التحديث من خلال القضاء على المكاسب الاجتماعية والنضال الاجتماعى، وتثبيت ما يسمى بنظام عالمى جديد.

ان هذا القاموس يعبر عن امبريالية ثقافية وعنف رمزى، مستند على قدرة كبيرة فى التواصل او الاتصال والاعلام ، بغرض الاخضاع وتعميم خصوصية تجربة تاريخية ، وتقديمها على انها نموذج كونى . وهى عملية تشبه تلك العمليات التى

حدثت فى القرن التاسع عشر. ان هذه الكلمات تجد حضورها المكثف وقوتها التداولية، فى المنظمات والهيئات العالمية ، كمنظمة التعاون والتنمية الاقتصادية ومؤسسات علمية كمعهد مانهاتن بنيويورك ، ومعهد آدم سميث بلندن ، والمؤسسة البنكية فى فرانكفورت ، ومعاهد حكومية ، كمعهد العلوم السياسية بباريس والمعهد الاقتصادى الملكى فى لندن ، ومعهد كيندى فى هارفرد، بالاضافة إلى الأجهزة الاعلامية الضخمة، التى تملك المفاتيح لكل شئ ، وتقدم حلولا جاهزة لكل طلب وتنشر وهم الحداثة المكثفة ultra modernisme ، متجاهلة الوقائع المعقدة للحياة الاجتماعية التاريخية والاقتصادية والثقافية . مقدمة للنموذج الامريكى ما بعد فورد وكينيدى على انه النموذج الأوحد، والسلطة العليا التى تحولت إلى «مكة رمزية» للكوكب الأرضى .

ان التحليل التجريبى والملموس للتطور الاقتصادى على مستوى المراحل او المدة الطويلة الكبيرة La langue durée ، يبين ان العولمة ليست مرحلة جديدة فى الرأسمالية، وانما هى فى نظره خطاب او مجاز rhétorique ، استحدثته الحكومات من أجل تبرير الخضوع والطاعة للسوق المالية . فبفرضها على العالم مفاهيم متشابهة لبنيات اجتماعية جد مختلفة، تحاول امريكا صناعة العالم او تشكيل العالم على صورتها، وان نشر هذه المفاهيم الصحيحة والخاطئة فى نفس الوقت، لا يؤدى إلا إلى شئ واحد فى نظره وهو احداث اجماع حول واشنطن على واشنطن Washington consensus معمم ومن الممكن ان يتم ذلك بطريقة عفوية ايضا. ان هذا الخطاب مدعم بسلطة فى تقديم الوقائع وتفسيرها وشرحها ، وهو خطاب حاضر فى اذهان الساسة وأصحاب القرار ويستعمل كوسيلة لبناء او قيام سياسات عامة أو خاصة وفى نفس الوقت يعتبر وسيلة لتقييم ذات السياسات .

وككل الأساطير فان العولمة او «الترجمة القديمة الجديدة للكوكب الأرضى» تعتمد على جملة من التقابلات : كالدولة / السوق ، الاكراه / الحرية ، الانغلاق/ الانفتاح، التخشب/ المرونة ، السكون / الحركة ، الماضى / المستقبل ، المتجاوز. الجديد، الركود / التنمية ، الجماعة والجمعوية / الفرد والفردية ، الاصطناع والتوحيد/ الجدة والاصالة والتنوع ، الشمولية / الديمقراطية ، ان هذه العولمة او الهيمنة الرمزية توظف وتطبق من قبل صنفين من المثقفين : صنف الخبراء الذين يحضرون فى الخفاء وفى كواليس الحكومات والدول تقارير فى غاية التقنية وبلغة

اقتصادية ورياضية فائقة الدقة والتدقيق والتجزئ، وصنف المستشارين ، فى الاعلام والاتصال حيث تكمن مهمتهم فى اضفاء الطابع الاكاديمى للمشاريع السياسية، وهو ما يمثله «اسيد انتونى قيدنز Anthony Giddens » ، الاستاذ فى جامعة كمبردج والذى عين مؤخرا مديرا معهد لندن الاقتصادى ، وصاحب النظرية التى تعد خليطا من كل النظريات الاقتصادية والاجتماعية او تركيبا سكولاستيكيا لتاريخ الفلسفة والعلوم الاجتماعية على السواء والتى تسمى بـ: «نظرية البنية Théorie de la structuration » ، والتى تعتبر قاعدة لسياسة الخط الثالث الذى يدافع عنه رئيس الوزراء البريطانى طونى بلار، وربما يقول بورديو من المفارقة ان تكون بريطانيا لأسباب تاريخية وثقافية ولغوية هى الوسيط بين امريكا واوربا القارية، الذى قدم حصانا بثلاثة ارجل وراسين ، وهما الثنائى تونى بلير وانتونى فيدنز، الدعاة الجدد الى توجه ثالث ، يتحدد كما قالوا بـ : «اتخاذ موقف ايجابى من العولمة» (25).

هوامش البحث

(1) بورديو : بين كارل ماركس وماكس فيبر، حوار مع بيير بورديو ، فى الفكر العربى المعاصر ، عدد 37 ، 1985 ، ص 66 .

(2) المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

(3) المرجع نفسه ، ص 68 .

(4) Pierr Bourdieu; Questions de sociologie, Ed, Minuit, Paris, 1980, p. 44.

(5) بورديو : بين كارل ماركس وماكس فيبر، حوار مع بيير بورديو ، فى الفكر العربى المعاصر، المرجع نفسه ، ص70 .

(6) المرجع نفسه ، ص 72 .

(7) الحوار ، ص 73 .

(9) المرجع نفسه ، ص 74 .

(10) المرجع نفسه ، ص 77 .

(11) المرجع نفسه ، ص 74.

(12) Pierr Bourideu: ce que parler veut diere, *L.'économie des échanges linguistique*, Ed, Fayard, Paris, p. 15.

(13) Ibid., p. 16.

(14) Pierre Bourdieu: Questions de sociologie, op.cit., p. 124.

(15) Ibid., p. 125

(16) Pierre Bourdieu: ce que parler veut dire, *l'économie des échanges linguistique*, op.cit., p. 16.

(17) Ibid., p. 105

(18) .Ibid., p. 107

(19) Michel Foucault: L'ordre du discours, ed, Gallimard, Paris, 1971, pp. 11-47.

(20). Pierre Bourdieu: ce que parler veut dire, *l'économie des échanges linguistique*, op.cit., p. 165

(21) Ibid., p. 109

(22) .Ibid., p. 115

(23). .Ibid., p. 119

(24) .Ibid., p. 116

(25) Pierre Bourdieu & Loic Wacquant: La nouvelle vulgatte .planitaire, in. Maniere de voire, No 52.2000. pp. 77-78.